العرب
الأحد 2019/08/18
السنة 42 العدد 11440

من دمشق إلى حيفا

يوميات أسري في سجون إسرائيل خلال حرب أكتوبر 1973

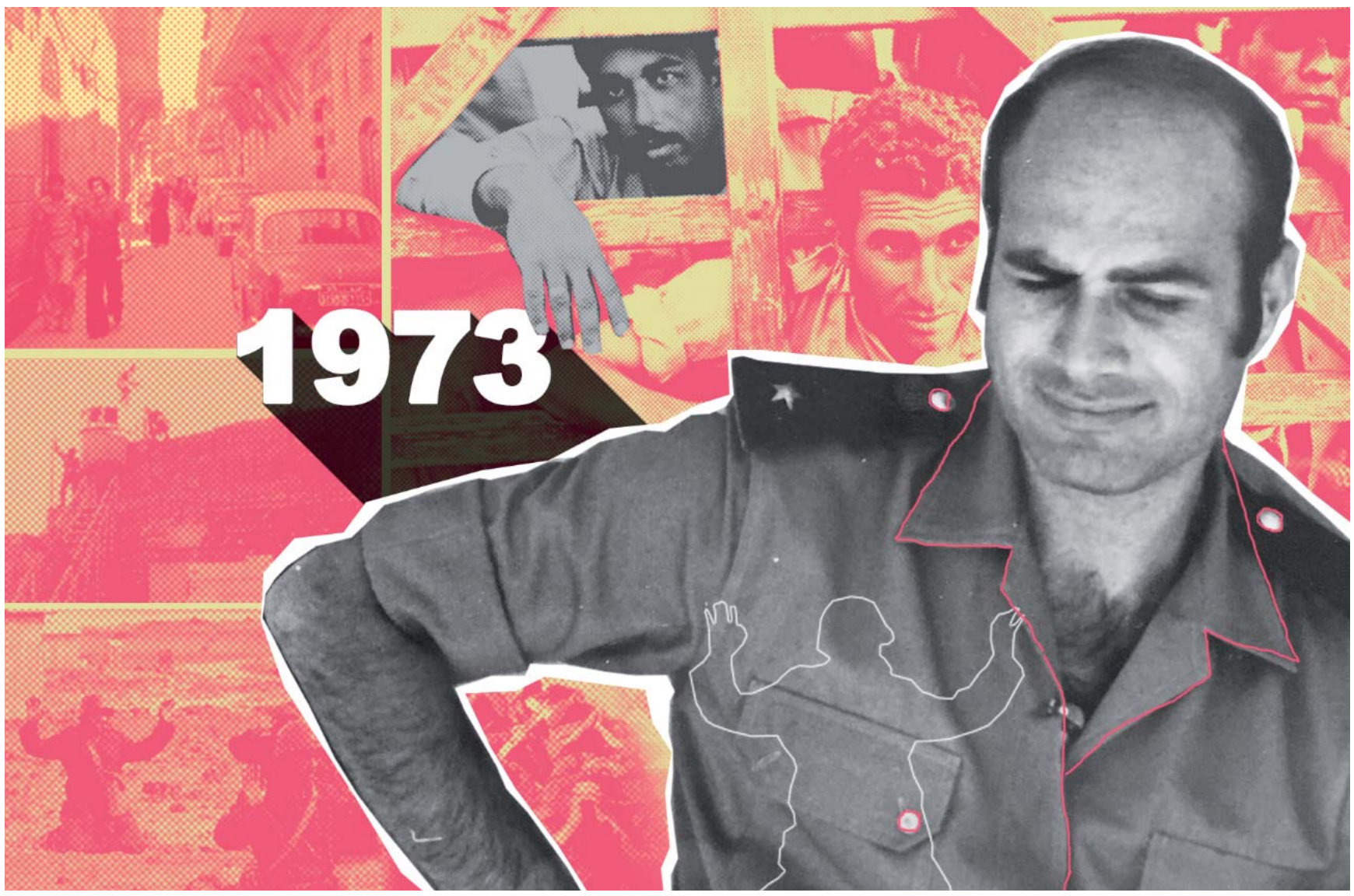

كم تمنّيتُ أن يكون هذا حُلماً سيِّئاً، أو غفوة عن الواقع (غرافيكس «العرب»)

خيري الذهبي
روائي سوري

كانت الجبهة السّوريّة في الشمال قد سكنت، والانفجارات قد توقّفت، كان المهندسون الإسرائيليون قد أنهوا تمهيد الطريق المنطلق من خندق آلون عبر السهل حتّىٰ الطريق المؤدّي إلىٰ خان أرنبة، ثمّ إلىٰ طريق دمشق. كنتُ أراقبهم من مرقبي العالي غير المرئي منهم، أو هذا ما ظننت، حتّىٰ قال لي فيما بعد أسابيع المحقق مرّة: وماذا كان بإمكانكَ أن تُسبّب لجيشنا من أذى وأنتَ الأعزل المراقَب جيّداً من الجانب الآخر للسهل الأعزل، لا تملك إلا جهاز لاسلكي، كنّا قد قطعنا التواصل بينه وبين غرفة العمليات في دمشق، وكانت، جملته هذه هي الصفعة القاسية لما ظننتُهُ عوناً لجيشي في حربه ضدّ المستعمرين الأشكيناز، وكانت صدمة الإحساس بالسخافة والدونكيشوتية، كان لا بدّ منها للعودة بي إلىٰ الأرض حتّىٰ لو كان ثمن اصطدامي بالواقع المُرّ كسر ساقيّ أو صلبي.

كنتُ أتمزّق غيظاً من رؤية الشماتة في عيون زميليّ في المخفر، أو هذا ما تخيّلتُهُ مغموراً بالوحدة والخوف وتخلّي العالم عنّي، كان السؤال الملحّ عليّ في أكثر الأوقات: أهذه هي المكافأة علىٰ إقامتي في المخفر، أدافع بوجودي تحت راية الأمم المتّحدة عن الأرض السّوريّة؟

كانت علاقتي مع الأُمميّيْن قد اختُصرت حتّىٰ التّحيّة الصباحية أو المسائية، وحين كانا يجعلان من غرفة المراقبة التي كانت مزجّجة من جوانبها الأربعة مكان راحة مُكيّفاً بهواء الخريف المعتدل، يشربان البيرة، وهما يثرثران في استرخاء في أمسيّات تشرين، أمّا أصوات التفجيرات التي تُسمَع في البعيد تقول إن الحرب ما تزال قائمة، وشعرتُ بالحرّ الشديد، ولستُ أدري أكانت بداية لحمّىٰ داخلية؟ أم أنه الإحساس بالغيظ والخسارة؟

وفي إحدى المرّات، وكنتُ أعود إلى بَرّاكَتي، فاجأني النقيب الهولندي يحمل إليّ فنجان كافيه أوليه، ولكني اعتذرتُ شاكراً، واتّجهتُ إلى البَرّاكَة، أحاول الراحة حين خرج من الغرفة الزّجاجيّة قائلاً: لماذا يبدو عليكَ وكأنكَ غاضب من أمر فعلْناه، أنتَ لا ذنب لكَ، ونحن لا ذنب لنا. تعال نُثرثر قليلاً، وشدّني من ذراعي، فانسقتُ معه، فلقد سئمتُ الصمت المحيط بي وبالمخفر.

> **كانت فرحة رؤية الدَّبّابات السّوريّة تتقدّم لعبور معبر آلون الفخّ، وتتقدّم عند سفح تلّ الشيخة، أو عند تلّة الأرانب، هذه الفرحة كانت قد انقضت، وبدأت الإصابات في دبّابات الجانب السّوريّ**

جلستُ. ناولني النقيب فنجان النسكافيه الكبير، وكان ما يزال يُحرّك ملعقة فيه لاستكمال ذوبانه، ثمّ وضعَه أمامي علىٰ طاولة صغيرة، وعاد إلىٰ الجلوس، وما كدتُ أجرع الجرعة الأولىٰ حتّىٰ قال الهولندي: حاولْنا الكثير من أجل خروج سليم من هذا الفخّ. نظرتُ إليه في جمود، لا أفهم إلامَ يريد الوصول حين قال: عرضْنا علىٰ القيادة في جيروسالم إخراجكَ من المخفر في سيّارة الأمم المتّحدة، وحتّىٰ رأس الناقورة علىٰ الحدود اللّبنانيّة مع إسرائيل، ونظر إلىٰ الإيطالي، وكأنه يستنجد به، ثمّ تابع بعد صدمتي بالنظرة الجامدة للرائد الإيطالي: وبهذه الطريقة، تخرج من الفخّ تحت راية الأمم المتّحدة.

ولكنهم في جيروسالم تردّدوا في قبول الاقتراح، حين ردّ رئيس البعثة هناك: الإسرائيليون يعرفون بأن السّوريّ ما يزال في المخفر، وبوجوده في المخفر يبدو وكأنه في "عتليت"، وكانت صدمة الجهل في أني لا أعرف عتليت، ولا أعرف مدلول الاسم، واستمررتُ في صمتي، أجرع الكافيه أوليه، تابع الهولندي: ولن يسمحوا لكم بإخراجه في سيّارة الأمم المتّحدة، وتحت أنظارهم، ثمّ ماذا لو قبضوا عليه معكم، قبل تهريبه من إسرائيل رغماً عنهم؟ هل تريدون إدانة الأمم المتّحدة في سعيها إلىٰ التّدخّل غير السِّلْميّ في السياسات المحلّيّة؟

وأخيراً قال الهولندي بهمس المتآمر معي: ما رأيكَ لو خرجتَ في سيّارة الأمم المتّحدة، ودون إبلاغ السلطات الإسرائيلية، أي نائماً في المقعد الخلفي مُغطّىً ببضع ثياب مُلقاة في إهمال؟

ولا أدري إن كنتُ حسن الحظّ حين رفضتُ ذلكَ المعروف، وأصررتُ علىٰ انتظار الحلّ من الحكومة السّوريّة، أم سيّئ الحظّ كالعادة.

في اليوم التالي عدتُ إلىٰ الكراج المرتجَل في المخفر، لأجلسَ علىٰ كرسي الميكانيكي الملوّث بشحم السّيّارات، أتأمّل القرية التي كانت تضجّ بالحياة قبل أيّام فقط، وهي اليوم ميتة، لا تعرف متىٰ تبعث فيها الحياة! وعاد الضابطان الأُمميان إلىٰ السُّكْر، والنوم في الملجأ محتميَيْن بمقولة الإيطالي "هذه حرب ليست حربي، ولا أريد الموت المجّاني فيها"، وفي انتظار نجدة ما تأتيهم من دمشق، أو من تلّ أبيب، كانا يقضيان علىٰ زجاجات الخمرة بالترتيب غير العنصري، فالمشروبات كلها، بغضّ النظر عن مصنعها وصانعها، سواءً، ولم أكن علىٰ جرأتهما في الاستهانة بدماء البسطاء، فأقضي ساعات الحرب سكران.

كنتُ أشرب القهوة في مجلسي في الكراج، أتأمّل القرية، ولا أراها، فما كنتُ مُهتمّاً برؤيته لم أره، وما كنتُ أشتهي رؤيته من نصر يستحقّه جيلي، لم يسعدني الحظ بنواله. وفجأة، وقبل أن أنفض رأسي محاولا الرفض، أو التّأكّد ممّا أرى، رأيتُهُ أو بالتدقيق لم أره، بل رأيتُ غباراً يتحرّك علىٰ طريق المخفر القادم من القرية، غباراً يصعد إلىٰ الأعلىٰ، ويثيره شيء ما يمشي علىٰ الدرب الترابيّ، خرجتُ من لامبالاتي ونعاسي، أحاول التّأكّد ممّا أرى، وفي عصفة ريح عابرة كشفتُ الغبار، فرأيتُهُ، كان كلباً ضخماً، كلباً؟ لا، بل كان أكبر من الكلب، بل هو أضخم من الكلب، ولم أستطع الجزم، فقد اندسّ في الغبار الذي أهاجه ثانية، وأخذت كتلة الغبار في التّقدّم نحو المخفر.

اهتممتُ لمرأى الكلب الضخم يتقدّم باتّجاه المخفر، وبحثتُ عن سلاح أدفعه به عنّي، ولكنْ، لا سلاح، فانحنيتُ إلىٰ الأرض، وحملتُ حجراً ضخماً كما كنا نفعل صغاراً، وفجأة سقط الحجاب الغباري، وبدا الكلب، كان كلباً جميلاً قوياً، وكان يدلي لسانه نحو الخارج في ظمأ واضح، قرّرتُ سقايته، سكبتُ من برميل في الكراج ما يملأ سطلاً صغيراً، وحين سمع صوت الماء يكركر في السطل اهتمّ، وانتبه، حاولتُ تجاهله، حين التفتُ إليه، رأيتُ تكشيرته المرعبة عن أسنان صفر، فوضعتُ السطل علىٰ الأرض بعد خَضّ الماء فيه، ولكنه شخر بقوّة وهرّ، فارتعبتُ، فلو قرّر عَضّي، فليس هناك مَنْ يدفع عنّي، وليس لديّ في الكراج سلاح، أيّ سلاح بما فيها السّكّين.

قرّرتُ الانسحاب، فالمواجهة خطيرة، وشديدة الخطر، وما يدريكَ أن من الممكن أن يكون مسعوراً مكلوباً، وعضّته تعني الموت البطيء في هذه الصحراء الخضراء الخاوية من كل حياة، فالأحياء الوحيدون فيها سكارى كالأموات؟!

كنتُ قد قرأت مرّة أن التحديق في وجه الحيوانات المفترسة قد يؤدّي إلىٰ هجومها عليكَ، فالتحديق في العيون تحدّ علىٰ السيادة، ولم أنظر في وجه الكلب مباشرة، وإن تخيّلتُ حجمه وتقاسيمه، فخطر لي أنه ليس كلب رعاة، بل كلب من سلالة طيّبة مُقدّرة عند مربّي الكلاب، وبرز السؤال: ولكنْ، ما الذي جاء به إلىٰ هذه القرية التي رأيتُهُ يخرج منها؟

سمعتُ صوت لعق متعجّل، فالتفتُّ لأكون في اتّجاهه، ورأيتُهُ يلعق الماء بسرعة العطشان من السطل، فكّرتُ بإطعامه، ولكنْ، ليس لديّ ما يصلح لأكله إلا علبة مارتيديلا، تُرى هل سيستطيبها؟ وبدأتُ زحف الأقدام خارج الكراج، ولكنه شعر بحركتي، فرفع رأسه عن السطل، وأطلق هريراً، سمعته شديد القوّة، ما دفع الرعشة إلىٰ عمودي الفقري، فتوقّفتُ مرعوباً، أنتظر خطوته التالية، ولكن ذلك الكلب لَمْلَمَ نفسه، وخرج إلىٰ البعيد، حيث اختار جذع شجرة صغيرة، واستلقىٰ تحتها وهو ينظر إليّ، حينها أحسستُ بأنه لن يغادر، وبأنه سيتحوّل إلىٰ عنصر أساسي من جماليات هذا المخفر البرّيّ.

تمطّيتُ سَئِماً من الأرق الطويل، وصوت الانفجارات تغطّي الأفق السّوريّ فقط، ولو بعيداً في الأرض السّوريّة التي لا أراها، رفضني السرير، فقمتُ، وأعدتُ التّمطّط، ثمّ خرجتُ من البَرّاكَة، وتأمّلتُ قرية جباتا الخشب التي فرضوا علىٰ سكّانها الهجرة إلىٰ الداخل السّوريّ، والتّخلّي عن أشيائهم البسيطة وحيواناتهم وطيورهم شبه البرّيّة، وكأنها لم تسكن من قبل.

لاحظتُ أن الانفجارات قليلة باتّجاه قرية جباتا الخشب، فعدتُ إلىٰ البَرّاكة، أعدّ لنفسي فنجاناً كبيراً من القهوة بالحليب، وربّما استهلك تنظيف فناجين النسكافيه وكؤوسها وقتاً، لم أحسبه قبل وَضْع الماء البارد ليغلي علىٰ البوتو غاز، فحين خرجتُ من البَرّاكة أحمل فنجان القهوة بالحليب، كانت الشمس أو نورها المنكسر قد أضاء الحقول أمامي، فاتّجهتُ إلىٰ غرفة الكراج المحميّ جيّداً براية الأمم المتّحدة. جلستُ علىٰ الكرسي العتيق، وبدأتُ رشف قهوتي.

نظرتُ ثانية إلىٰ القرية المهجورة، حيث تتبدّى القرية، كانت الحمائم الكثيرة، والتي لم يستطع سكّان القرية اصطحابها، فتركوها لنصيبها، كانت تطير طيرانها الصّباحيّ علىٰ عادتها، وكانت أصداء الانفجارات قد توقّفتْ لسبب ما، فانتهزت الحمائم من بيض، وسود، وحمر، ومختلط الألوان، لتطير سعيدة بالسلام والهدوء، كانت تطير في مجموعات كبيرة، تُرى هل استعادت سلامها الخاصّ؟ ترى هل للحمائم سلام بعيداً عن تدخّل الإنسان، وتدريبها الذي يجعلها تُنهك الحمامة الضّالّة عن مطارها، ثمّ تحطّ، فتحطّ الحمائم جميعاً، بما فيها الحمامة الضّالّة، مطيعة لصاحبها الذي أطعمها وجوّعها للأنثىٰ، وأطلقها مُقيّدة بشهوتها لشيء واحد فقط، للأنثىٰ؟

فجأة انفجرت القذائف والقنابل والصواريخ دفعة واحدة، واستجاب الطرف الآخر، واندلع تبادل القتال من جديد، تُرى كيف يفكّر السّكّان الآمنون في سوريا الآن؟ كيف يتصرّف البسطاء الساعون إلىٰ جَلْب الخبز لأطفالهم الآن؟ الفول؟ الحمّص؟ فطور الصباح العادي؟

يبدو أن أُذُنَيّ اعتادتا التفجيرات، واعتادتا تجنُّب الطّرَفَيْن لمواقع الأمم المتّحدة، فلم تقربنا حتّىٰ اليوم قنبلة ضالّة، ولا رصاصة عيار خمس مئة طائشة، ولمفاجأتي كانت غيوم الحمائم تعلو مرعوبة من انفجارات لا عهد لها بها، كانت تعلو، وتعلو حتّىٰ تصبح لطخة ملوّنة في السماء الصّباحيّة، لا يمكن تمييزها، جرعتُ جرعة مطمئنّة في مخبئي في الكراج المؤقّت لسيارة قوّات الطوارئ، ثمّ تحوّلتُ بنظري إلىٰ الغيمة الملطخة باللون الأحمر المبكّر حين رأيتُ قطعة صغيرة تتسلّل من الغيمة، وتهوي باتّجاه الأرض، تهوي وتكبر وتهوي وتكبر حتّىٰ استعادت حجمها الحمامي.

> **كانت علاقتي مع الأُمميَّين قد اختُصرت حتّى التّحيّة الصباحية أو المسائية، وحين كانا يجعلان من غرفة المراقبة التي كانت مزجَّجة من جوانبها الأربعة مكان راحة مُكيَّفاً بهواء الخريف المعتدل**

وتوقّفتُ عن جرع النيسكافيه مشدوداً إلىٰ مغامرة الحمامة المنفصلة عن الغيمة، وفجأة غابتْ عن ناظري، وقبل أن أقف لأتابع حركتها الغريبة، سمعتُ صوت ارتطام بالصفيح المغطّي للكاراج، ولم أستطع فَهْم ما جرى حتّىٰ رأيتُ الحمامة تهبط ساقطة عن باب الكراج المفتوح علىٰ طريق جباتا الخشب، اقتربتُ من الحمامة الساقطة، أحاول تهييجها فتطير، ولكنها كانت ساكنة، فتجرّأتُ، ورفعتُها عن الأرض، ولكنها كانت دافئة دفء الموت القريب، وفزعتُ من لقاء الموت علىٰ هذا الشكل، ولكن استمرار الانفجارات والقذائف جعلني أنظر إلىٰ غيمة الحمائم في خوف، وإذ بي أرى الشهب تنفصل عن الغيمة، وتهوي، وارتعبتُ ممّا أرى، فدخلتُ إلىٰ الكراج أحتمي من شهب الحمائم التي لم تخيّب ظنّي، إذ علت فجأة أصوات ارتطام الحمام الميت رعباً وتعطّشاً إلىٰ الأرض، بالسقف الصّفيحيّ، ثمّ صوت ارتطامها بالأرض، بالبساتين البعيدة.

كان يوماً عادياً لا تميّزه إلا الانفجارات من العمق السّوريّ